عن لوحة مونتسيرات غوديول: "إغناطيوس الحاج"

ابتكر الفنان الإسباني مونتسيرات غوديول (1933-2015) لوحة استثنائية للقديس إغناطيوس في عام 1991 بمناسبة الذكرى الـ500 لميلاده. وهي معلقة الآن في كنيسة في مانريسا، إسبانيا، التي بنيت في المكان المنعزل الذي عاش فيه إغناطيوس وعانى فيه خلال الفترة الحاسمة من اهتدائه العميق.

بخلاف ذلك، رسمت غوديول النساء بشكل رئيسي. ولكن في عام 1983، طُلب منها رسم لوحة للقديس بنديكتوس لدير مونتسيرات البينديكتيني، الذي يقع بالقرب من برشلونة مثل مانريسا. تُظهر اللوحة بنديكت خارجاً من شبه الظلام، وقاعدة الرهبنة في يده، ونظره في منتصف الطريق إلى الأرض وقدمه اليمنى أمامه، وهو يخطو نحو المشاهد. وهو يرتدي – مثل البينديكتين – رداءً أسود، ولكن بقصّة بسيطة للغاية.

وفوق كل شيء، هذه واحدة من الصور القليلة جداً التي تُظهر بنديكتوس بلا لحية وشاباً. لديه بالفعل كتاب – قواعد الرهبنة – في يده. ولكن لديك انطباع بأن هذا الكتاب لم ينته بعد أيضاً. فبينيديكت يمسك بيده اليمنى كما لو كان يريد أن يمد يده وبعد ثماني سنوات، رسمت لوحتها الثانية للقديس. وهذا أيضاً تفسير جديد .إليها مرة أخرى تماماً ويصور شاباً يافعاً. وعلى حد علمي، فإن هاتين اللوحتين هما الوحيدتان للقديسين في أعمالها، وهما من بين اللوحات النادرة للرجال التي رسمتها غوديول.

وغالباً ما تمحو غوديول خلفية شخصياتها وتستبدلها بلون ما، ولكن نادراً ما يكون ذلك مع إضاءة قليلة جداً. في لوحتها "إغناطيوس"، لا يمكن رؤية سوى لمحة من اللون الأسود الفاتح في الزاوية العلوية اليمنى.

خلال الفترة التي قضاها في مانريسا، اختبر إغناطيوس الظلام الداخلي إلى أقصى ما يمكن أن يتحمله. وكلما حاول أن يعيش حياة جديدة جذرية كمسيحي بعد أن وضع جانبًا الفرسان والزي الأرستقراطي، كلما كان ينقاد إلى الاكتئاب. وحدها رؤية الثالوث الإلهي، التي لم يلمح إليها هو نفسه إلا بحذر شديد، هي التي منحته الصفاء للتخلي عن زهده الديني المتطرف من جهة، وفتحت له رؤية داخلية لحقيقة الله وحضوره من جهة أخرى، والتي طبعت كل دراساته المستقبلية وحياته الصوفية. لا يصور غوديول إغناطيوس كشخصية نورانية، لكنه يميز بوضوح بين اللحظة والظلمة التي تقف وراءها. فحتى لو كانت قدماه غير مرئية، فهو الآن إغناطيوس الحاج: رجل مفضّل من الله ينطلق في رحلته.

لم تكن ثياب اليسوعيين متدينة، ولكن الحلقة الأولى من الأصدقاء الذين أحاطوا بإغناطيوس أثناء دراسته في سالامانكا ربما كانت ثيابهم مشابهة لتلك التي صُوِّرت هنا. فقد أرادوا أن يكونوا حجاجاً بسطاء. الثوب منحني قليلاً في الوسط. وفي غياب كيس التخزين، كان المتسولون يحتفظون بالخبز الذي كان يُعطى لهم هناك. لم يكن إغناطيوس يريد الأمان لنفسه وللرهبنة فيما بعد من أجل أن يكون مرتاحًا، بل كان يريد دائمًا أن يتلقّى الهدايا من الناس التي تمكّنه من كسب عيشه، لأن هذا ساعده على ممارسة تلقي الحياة كلها كهدية.

هذه الرغبة في التلقي يعبر عنها أيضًا باليد اليمنى (اليد الفاعلة!). إن النشاط الأول للحاج هو التلقي، السماع، الإصغاء، الإصغاء، الانتباه. وهذا وحده يتطور إلى فعل، إلى استيعاب وتشكيل. لهذا السبب يرتبط التلقّي أيضًا بامتلاك شيء ما ليعطيه. وبالتالي يمكن للشخص الذي يصغي وينتبه حقًا أن يكون شخصًا لديه ما يعطيه. لذلك يمكن أيضًا أن يُنظر إلى اليد على أنها "إمكانية إعطاء شيء ما" وربما أيضًا على أنها "إشارة" إلى بُعد لا يمكن رسمه.

اليد اليسرى (الأقل نشاطًا بالنسبة لأصحاب اليد اليمنى) هي اليد النشطة هنا. تتمثل الصيغة الإغناطية القصيرة "التأمل في العمل" في هاتين اليدين.

يتم توجيه النظرة المركزة والمفتوحة إلى المسافة. وهي تتوافق مع وضعية جانبية قليلاً تعطي انطباعاً بالحركة. الصوفي، الذي يطلق على نفسه اسم "الحاج" في سيرته الذاتية، يأتي من مانريسا. لذلك فإن كتاب "الحاج" ليس سيرة ذاتية بقدر ما هو سيرة ذاتية يستخدم فيها مثال حياته الخاصة ليروي كيف يأخذ الله بيد الناس ويقودهم، وكيف يمكن لروح الله أن يحوّل حياة الإنسان وبالتالي يمكّنه من الوقوف إلى جانب المسيح والخدمة تحت رايته.

Martin Löwenstein SJ, 2023